مجلة روافد للبحوث و الدراسات / مخبر الجنوب الجزائري للبحث في التاريخ والحضارة الإسلامية
جامعة غرداية / العدد التاسع (ديسمبر 2020 م)
E: 2588-1787 / P: 2543 - 3563
/http://rawafid.univ-ghardaia.dz

جوانب من مظاهر الحياة الاقتصادية في قصر متليلي

خلال القرنين 19-20م

د. بكار الدهمة
قسم التاريخ- جامعة غرداية / الجزائر
dahmaa01@gmail.com

مـلخـص

تهدف هذه الورقة البحثية إلى تسليط الضوء على بعض الجوانب من الحياة الاقتصادية في مدينة متليلي الشعانبة خلال القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين. إذ تُعد الصحراء الجزائرية من بين أكثر المناطق أهمية في بلاد المغارب، وذلك بفضل الموقع الاستراتيجي الذي تحتله، باعتبارها همزة وصل بين المغارب وبلاد السودان الغربي، ومسلكا تجاريا ومعبرا لقوافل التجارة العابرة للصحراء، وهذا راجع إلى اتساع رقعتها وانتشار المدن بها، ولعل من بين أكثر المدن الصحراوية أهمية في بلاد المغارب عامة والمدن الصحراوية في الجزائر خاصة؛ مدينة متليلي، وقد حظيت هذه المدينة بقسط وفير من كتابات المؤرخين والرحالة المغاربة والأوروبيين ، لما لها من موقع متميّز ودور بارز في شتى المجالات، خاصة في المجال الاجتماعي والاقتصادي.

الكلمات المفتاحية: أبناء الشعانبة؛ مدينة متليلي؛ المدن الصحراوية؛ تجارة القوافل الصحراوية.

The sides of the economical life aspects in the city of metlili during the 19-20 century.

Abstract

This research aimes to spot light on some sides of economical aspects in metlili city during 19 and 20 century. The Algerian sahara considers from the most important region in the maghrabian ares because of its location it is the link point between the maghrabian cities and the western soudan and a commercial path and commercial caravans it is very vast area. Metlili considered one of the most famous cities that many historians and writers mentioned it in rheir books arabs and european ones because of its role in many fields especially economical and social field.

The Key words: The sons of chambaa- Metlili city- The cities of sahara- The commerce of the caravans.

المنارة للاستشارات

- تقديم:

ورد في مقدمة بن خلدون بخصوص مسألة نشوء وتكون التجمّعات الحضرية والمراكز العمرانية بأنها تخضع عند تأسّيسها ونشأتها في الغالب إلى جملة من الشروط الأساسية أهمها هو توفر الإرادة الجماعية والشوكة العصبية أو الدينية، وامتلاك القوة المادية والعنصر البشري الكافي، فحسب اعتقاده وتصوره لا ينشأ المجتمع المدني الحضري حتى تتوفر الإرادة والوحدة وروح التعاون [1]،وإذا افترضنا جدلاً صحة الشروط التي توصل إليها بن خلدون في تأسيس التجمعات المدنية في الفترة التي عاصرها أو التي كانت قبله، فإن الأبحاث الاجتماعية والعلمية المعاصرة لا تكتفي بتلك الشروط التي وضعها وصاغها ابن خلدون في تأسيس المراكز الحضارية، فظهور الحواضر وتكونها حسب الدراسات المعاصرة يخضع لعّدة عوامل ومعايير وهي أكثر تعقيداً من الشروط التي وضعها بن خلدون ومن أهم هذه المعايير نجد معيار التوافق والانسجام الاجتماعي والثقافي ونجد كذلك شرط إلزامية توفر الغاية والهدف من تأسيس تلك المراكز والتجمعات الحضرية وإذا رجعنا للمؤرخ بن خلدون في هذه المسألة نجد بأنه قد ركز بشكل كبير في مقدمته على مسألة العصبية وانقسام العنصر البشري في نمط العيش إلى أهل الحضر وأهل البدو؛ مما جعلهم في حالة تنافس وصراع دائم على الرياسة والملك في إطار ما سماه بصراع البداوة والحضارة أو الدورة الحضارية [2].

وانطلاقا من هذا السياق التاريخي والسوسيولوجي، وفي محاولة للربط بين ما هو نظري محض وما تواترت على نقله الروايات التاريخية المحلية بخصوص تشييد قصر متليلي ونمو الحياة الاقتصادية من حوله يمكن طرح التساؤل الإشكالي العام الآتي: ما هي أهم الخصائص الطبيعية والبشرية المميزة للمنطقة ؟ وما أهم الأسباب والعوامل التي دفعت بأبناء الشعانبة إلى الاستقرار في هذه المناطق الصحراوية القاحلة والجرداء والمحدودة الإمكانيات؟ وفي أي فترة تاريخية تمّ تشييد قصر متليلي؟ وما هي أهم مظاهر الحياة لاقتصادية في قصر متليلي ؟.

(1) عبد الرحمان بن خلدون: المقدمة، تهذيب ضياء الدين رجب ،ط1،دار الفتح للطباعة والنشر، الشارقة، الإمارات العربية،1995، ص ص 122-125.

(2) ابن خلدون : المصدر نفسه، ص ص 432-438.

المنارة للاستشارات

ولعلّ من أهم الدوافع والأسباب التي كانت وراء استقرار أبناء الشعانبة ذوي الأصول العربية في هذه المنطقة التي تُعرّف محلياً بمنطقة الشبكة أو واد متليلي، هو البحث عن موقع أو موطن آمن لجعله مكاناً صالحاً لاستيطانهم واستقرارهم، وما إن وجدوا المنطقة المناسبة لذلك حتى استوطنوها وشرعوا فور استقرارهم في حفر آبار المياه، وتشييد بعض المساكن البسيطة لهم، ومع تزايد توافد عناصرهم على المنطقة بدأت الحياة الاجتماعية والتجارية تدب وتنتشر وتتزايد بوتيرة متسارعة في المنطقة وفي كامل المناطق المجاورة لهم، مما دفع بسادة الرأي فيهم إلى التفكير في تأسيّس وتشيّيد قصر يكون ملاذاً لهم يجمعهم بعد تفرقهم في قوافل التجارة والرعي، فلقد كانت قوافلهم التي لا تكاد تتوقف طوال فصول السنة تجُوب معظم المناطق الصحراوية المقفرة، وبسبب هذا النمط من المعيشة المرهقة والقائمة على شظف العيش وعلى الترحال والانتجاع تمّ الاتفاق بين أهل الرأي والمشورة بعد عدّة جلسات ولقاءات على تأسيّس القصر الذي سيّكون له الدور والشأن الكبير في ميلاد وبعث الحياة في هذه المنطقة الصحراوية القاحلة. وللإجابة عن التساؤلات السابقة؛ فقد قسّمت المقال إلى ثلاثة محاور رئيسية، وهي كالآتي :

1 - الخصائص الطبيعية والبشرية لسكان قصر متليلي.

2 - ظروف تشييد قصر متليلي.

3 - جوانب من الحياة الاقتصادية والاجتماعية لسكان مدينة متليلي الشعانبة.

أولاً- الخصائص الطبيعية والبشرية لسكان قصر متليلي:

كانت منطقة الشبكة[1] عامة وناحية وادي متليلي على الخصوص أرضاً عامرة منذ زمن القديم، ويكفي للتدليل على ذلك أن نذكر بعض مما جاء في التقرير الذي أعدّته اللجنة الموفدة من معهد الآثار بالجزائر العاصمة إلى المنطقة، والتي زارت المكان المسمى بقصر أودي الذيب الواقع جنوب بلدة متليلي، حيث جاء في التقرير ما يلي: "يعتبر هذا القصر من القصور النادرة التي تحتاج إلى بحث معمّق وإلى حفرية أثرية عاجلة وحسب

(1) الشبكة هي منطقة تضاريسية ،تحتوي على مجموعة من الهضاب الصخرية المتشابكة، تتخللها العديد من الشعاب والوديان، وهذا ما تتميز به منطقة متليلي الشعانبة والمناطق القريبة منها.

المنارة للاستشارات

الملاحظات الأولية، فإنه يتبين لنا أنه يعود في تاريخه إلى العصر الحجري القديم (Paléolithique)."[1]

أ) الخصائص الطبيعية:

تتمركز مدينة متليلي على هضبة كلسية حجرية تتخللها وتخترقها مجموعة من الأودية والشعاب والمرتفعات المتوسطة العلو المعروفة والمسماة القور، ويطلق سكان المنطقة على هذه الهضبة المترامية الأطراف اسم الشبكة لتشابك وتشابه الأودية والشعاب التي تخترقها [2].

يسود المنطقة المناخ القاري الحار والجاف؛ حيث ترتفع درجات الحرارة في فصل الصيف إلى حدود الخمسون 50 درجة مئوية وتنخفض في فصل الشتاء لتصل في بعض الأحيان إلى ما تحت درجة الصفر 0°، أما تساقط الأمطار فيكاد يكون نادر على طول السنة، ولهذا تعاني المنطقة من حالات القحط والجفاف المستمر. أما هبوب الرياح فعادة ما يكون اتجاهها شرقية جنوبية، وهي رياح جافة وحارة تُعرف في المنطقة باسم الشيلي تبدأ في الغالب مع بداية فصل الربيع وتستمر إلى بداية فصل الصيف وتكون متبوعة في الكثير من الأحيان بالزوابع والعواصف الرملية العاتية[3].

أما جريان الأودية في المنطقة؛ فهي عادة ما تكون في فصل الشتاء وتكون دائماً سريعة الجريان وفجائية[4] ؛نتيجة هطول الأمطار المفاجئ، ومن أهم هذه الأودية نجد واد

(1) عبد الكريم عزوق وعلي حملاوي: تحريات بمنطقة متليلي، في مجلة الدراسات الأثرية ،مج3، العدد01، معهد الآثار، جامعة الجزائر، نوفمبر 1998، ص ص96-100

(2) Paul François Michel passage : Metlili des chaamba ,centre de Documentation saharienne , sans date,p515.

(3) نشرية لمصالح الأرصاد الجوية في ولاية غرداية ،2010 وينظر كذلك إلى .P-F-M-passage: ibid ; P 521

(4) هناك العديد من الأودية في المنطقة؛ أهمها واد زقرير الذي يسقي واحة القرارة وواد النساء الذي يسقي واحة بلدة بريان وواد سبسب وواد صقر الواقع في تراب مدينة المنيعة للمزيد ينظر : أحميدة عميراوي ومن معه: السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية 1844- 1916، دار الهدى للطباعة والنشر، الجزائر،2009،ص ص14-15.

المنارة للاستشارات

متليلي الذي يصل مجراه إلى حدود بلدة أنقوسة [1] الواقعة حاليا في تراب ولاية ورقلة، أما بخصوص طبيعة التربة فهي تربة صخرية صلبة يكسوها وشاح من الأحجار الصغيرة لا تصلح إلا لزراعة النخيل وبعض المحاصيل الموسمية.

ب)الخصائص البشرية:

ينقسم السكان في منطقة وادي ميزاب على العموم إلى فئتين، هما: فئة الحضر وفئة البدو الرحل، والحضر هم في الغالب سكان القصور السبعة بالنسبة لميزاب، وسكان كل من قصر متليلي وقصر المنيعة بالنسبة للعرب المالكية، أما البدو فهم جموع الرحل المتنقلين في البوادي والمراعي والأودية القريبة من المنطقة، وبفضل هذه الثنائية عرفت المنطقة نمطين من أنماط العيش، نمط يقوم على الزراعة والصناعة الحرفية ولنشاط التجاري في المناطق الحضرية، ونمط آخر يقوم على الرعي وتربية المواشي في المناطق المحيطة بالبوادي، وكان لأبناء الشعانبة الذين فضّلوا الاستقرار في المنطقة نصيباً من كلا النمطين[2].

وقبل أن نستعرض أصول قبيلة الشعانبة، يجب علينا أن نوضّح نقطة أساسية، وهي أن قبيلة الشعانبة هي من القبائل العربية الأصل[3] ، وقد تشكّلت في الأساس على مبدأ الولاء والتحالف مع فروع قبائل أخرى، وهذا إذا استثنينا النواة المركزية الأساسية لأبناء الشعانبة العربية الأصل، فقد كان هناك فروع من قبائل أخرى انضمت وانصهرت في صلب القبيلة الأم، وأصبحت جزء لا يتجزأ من القبيلة، وذلك بفعل المصاهرة والتحالف والموالاة.

(8) إبراهيم محمد طلاي: ميزاب بلد كفاح ،دراسة تاريخية واجتماعية ،دار البعث، قسنطينة ، الجزائر، 1970،ص62.

(9) إسماعيل العربي: الصحراء الكبرى وشواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر،1989، ص ص 165-166 . ينظر: الشيخ لكحل: مقاومة منطقة متليلي الشعانبة للاستعمار الفرنسي في الفترة مابين 1851-1908، أطروحة مقدّمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم العلوم الإنسانية- شعبة التاريخ، جامعة سيدي بلعباس ، السنة الجامعية 2017-2018، ص26 وما يليها.

(3)عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، مؤسسة الرسالة ، بيروت1994، ج2،ص546. اسماعيل العربي: المرجع السابق، ص163.

المنارة للاستشارات

وإذا أردنا أن ندقّق أكثر نقول أن أبناء شعانبة متليلي يعودون في أصولهم إلى عرشين[1] ، هما عرش أولاد عبد القادر وعرش أولاد علوش، وهما العرشين اللذين يشكلان في الغالب أهم عناصر القبيلة، أما العرش الثالث فهو عرش القصر الذي يمثل مجموع فرقه القسم الحضري من السكان الذين استوطنوا القصر على مراحل تاريخية متفاوتة [2].

أما بخصوص القيادة عند أبناء الشعانبة؛ فيذكر في هذا الشأن المؤرخ والباحث إسماعيل العربي بأن مسألة الزعامة عند أبناء الشعانبة هي مسألة وراثية مبدئياً، بحيث أن الابن الأكبر للزعيم هو في الغالب من يتولى الرئاسة بعد وفاة الشيخ، ولكن بشرط موافقة جماعة الأعيان الذين كانوا بمثابة مجلس استشاري متكون من كبار الحكماء لهم صلاحية قبول ورفض التعيين، وتذكر بعض الروايات بأنه كان في كثير من المرات يتم رفض الابن الأكبر إذا رأى فيه المجلس بأنه لا يصلح للرئاسة ففي هذه الحالة يقوم المجلس بتعيين الأخ الأصغر منه أو تعيين حتى أحد الأقارب إذا رأوا فيه الصلاح والفلاح وصفات القائد[3].

وتجمع العديد من الكتابات على أن بطون قبيلة الشعانبة رغم انتشارها على رقعة وحيز جغرافي واسع من الصحراء. ورغم ارتباط فروعها بفروع قبائل الأخرى عن طريق النسب أو المصاهرة، إلا أن أبناء القبيلة بقوا على العموم محافظين على قيّم التكافل والتضامن والوفاء فيما بينهم، وخاصة في أوقات المحن والفتن التي كانت تعصف بالمنطقة

(11) إسماعيل العربي: المرجع نفسه، ص ص 165-166. وينظر أيضا : التقرير الذي أعدّه مكتب الدراسات الفرنسي عن بلدة متليلي سنة 1955.

(2) هناك روايات تقول بأن أبناء الشعانبة الأوائل نزحوا للمنطقة في الأصل من نواحي مدينة وهران وكانوا في البداية مجرد عائلة واحدة متكونة من سبعة أخوة غير أشقاء، وبسبب نشوب خلاف عائلي؛ فيما بينهم أثناء تنقلهم فر الأخوين الشقيقين ثامر وطريف عن باقي أفراد العائلة ولجأ وانضما خفية إلى قافلة كانت متجهة إلى الجنوب وبعد رحلة طويلة محفوفة بالمخاطر استقر بهما المقام في منطقة متليلي للمزيد في الموضوع، ينظر:

Eugene Daumas: les Sahara Algérien ,études Géographiques et historiques sur la région Au sud, Paris,1845,p310.

(3) إسماعيل العربي: مرجع سابق،ص166.

المنارة للاستشارات

من حين إلى آخر، حيث يذكر في هذا الصدد الضابط الفرنسي أوجين دوماس (Eugène Dumas) في كتابه الصحراء الجزائرية " بأنه رغم التباعد بين فروع الشعانبة إلا أنهم بقوا متضامنون ومتهيئون لمساعدة بعضهم البعض وخاصة في الظروف الصعبة. "[1].

ثانيا : القصر العتيق بمتليلي:

يُعد تشييد قصر متليلي؛ بمثابة النواة الأولى لتجربة العمارة عند أبناء الشعانبة في المنطقة، فلقد تمّ الشروع في عملية بناء وتشييد القصر مع بداية القرن السادس الهجري/ الثاني عشر ميلادي، وهذا حسب ما هو موجود على اللوحة المعلقة على مدخل مسجد القصر العتيق المؤرخة بسنة 550هـ/1156م. بينما أشار الرحالة الأجانب الذين زاروا المنطقة خلال النصف الثاني من القرن19م ، أنه يعود إلى القرن05هـ/11م[2].

وتذكر العديد من المصادر في هذا الشأن أنه بمجرد استقرار العناصر الأولى من أبناء قبيلة الشعانبة في المنطقة ؛ أي في وادي متليلي أخذوا في البحث عن مكان مناسب يصلح لبناء مسجد لهم، بحيث استقر رأيهم على اختيار ربوة صخرية على شكل هضبة تتوسط مجرى الوادي. ويعود السبب في اختيار هذا الموقع إلى دواعي وضرورات أمنية ووقائية دفاعية كون الظروف العامة في تلك الفترة كانت غير مستقرة ومليئة بالثورات والحروب والفتن التي كانت تعصف بين القبائل من حين إلى آخر[3].

ومع نهاية القرن التاسع هجري/ الخامس عشر ميلادي، وبالضبط في سنة 800هـ/1397م عرف المسجد والقصر أول عملية توسعة، وهذا بعد أن ازدادت وتيرة توافد بعض فروع القبائل على المدينة الحديثة النشأة، حيث كان لهؤلاء الوافدين الجدد الفضل في بعث وتنشيط الحياة الحضرية في المدينة، بحيث تمّ في هذه الفترة بناء صومعة المسجد التي أخذت شكلاً هرمياً مماثلاً لنمط المعمار الإفريقي الذي تمّ استلهامه من بلدان الساحل الإفريقي التي كان يتردّد عليها أبناء الشعانبة بشكل كبير في تجارتهم.

)1(Eugene Dumas: Op cit,p311.

(15) عبد الكريم عزوق وعلي حملاوي: المرجع السابق، ص ص96-100

(16) المرجع نفسه، ص ص96-100

المنارة للاستشارات

ولتقديم صورة بشكل أكثر دقة عن قصر متليلي، نورد جزءاً مما أشار إليه الباحث الفرنسي إيف رنييه (Yves Régnier) الذي وصف القصر عند مشاهدته له سنة 1890م بما يلي: " تمّ تشييد القصر على شكل مدرج فوق ربوة صخرية صغيرة محاصرة من الجنوب والشرق بحواف صخرية جبلية عالية، ويوجد داخل القصر حوالي 288 منزلاً مبنية بالحجارة والطين. أما سور القصر فتتخلله ثلاثة أبواب، وهي الباب الظهراوي، والباب الغربي، والباب الكبير، بحيث يصل ارتفاع السور المحيط بالقصر إلى حوالي ستة 06 أمتار من الجهة الشمالية وإلى 03 أو 04 أمتار في الجهات الثلاثة الأخرى [1]. ويضيف بأن أبواب المنازل كلها صغيرة وقصيرة، وهذا حتى تحمي ساكنيها من نظرات المارة، أما أبواب غرف المنازل في الداخل؛ فهي مفتوحة على فناء واسع ومربع الشكل، أما أزقة القصر؛ فهي ضيقة ومستقيمة يتراوح عرضها ما بين 1.5م إلى 02م تتشابك وتتوزع لتلتقي في ساحة واسعة نوعا ما يستغلها سكان القصر كسوق لعرض منتجاتهم التي هي في الغالب محلية، ويتفرع عن السوق ثلاثة شوارع رئيسة أكثر اتساعا يصطف على جانبي كل شارع محلات تجارية صغيرة وكل شارع منها كان مخصصاً لنوع معين من الحرف والسلع المتداولة." [2]

ويعود الفضل في تشييد القصر في وقت وجيز إلى تلك الخبرة التي اكتساب أبناء الشعانبة في مجال العمارة والبناء وإلى طبيعة ونمط حياة أبناء القبيلة القائم على التنقل والترحال. وفي هذا الصدد تذكر الكثير من المصادر بأن أبناء الشعانبة كانوا كثيري الحركة والتنفل، مما أكسبهم فرصة التعرف على أنماط متعددة من فن العمارة والبناء، وبفعل احتكاكهم بالدولة الزيرية التي عاشوا بالقرب منها لأكثر من قرن من الزمن[3] اكتسبوا خبرة ممارسة الحياة الحضرية، وخاصة في المجالات التجارية والعمرانية.

(17) Yves Regnier: Les chaamba Sous le régime français leur transformation les éditions Domat – Montchrestien, 1938 ,p80.

(18) Lieutenant Darmagnac: Le Mzab et les pays chaamba ,édition Baconnier,1933,p51.

(19) استوطنت القبيلة بالقرب من حدود الدولة الزيرية وعاشوا وتعايشوا مع سكانها لقرابة القرن بعد الرحلة الشهيرة التي جاءت بهم من المشرق إلى المغرب في ما يُعرف بالتغريبة الهلالية، حيث وصلوا واستوطنوا بلاد المغرب رفقة إخوانهم من بني سليم في شكل هجرات متتالية في الفترة ما بين 1051-1148م ، للمزيد ينظر : عبد الحميد بن ولهة: أبناء الشعانبة ومراحل التطور الحضاري لبلاد الشبكة سكانيا وعقائديا وعمرانيا، ط1، دار صبحي للطباعة والنشر، متليلي، الجزائر،2014،ص ص 222-223 .

المنارة للاستشارات

ثالثا -جو انب من الحياة الاقتصادية لسكان قصر متليلي:

تعدّدت وتنوعت وسائل العيش لدى سكان قصر متليلي، ونظراً لكون المدينة تقع في منطقة صحراوية شبه قاحلة كما سبق الذكر، ونظراً لطبيعة التركيبة السكانية ونمط العيش القائم على ثنائية الانتجاع والاستقرار وبسبب كون معظم أبناء الشعانبة يمتلكون الثروة الحيوانية والمتمثلة في الغالب في رؤوس الأغنام وفي قطعان الإبل انتشرت حرفة الرعي فيما بينهم، بحيث تحولت إلى أهم حرفة في المنطقة بعد زراعة النخيل، فكانت رحلات البحث عن المراعي الخصبة لقطعانهم تشمل مناطق واسعة وكبيرة من الصحراء تستغرق معظم الوقت والجهد؛ فهي حسب ما ذكر المؤرخ إبراهيم مياسي: " تمتد من الحدود التونسية شرقاً إلى حدود قبائل بني غيل في الغرب." [(1)].

ويذكر المؤرخ إسماعيل العربي في هذا الصدد بأن المراعي التي كان يجوبها أبناء الشعانبة كانت " تمتد من الحدود الليبية شرقاً إلى الحدود الغربية للعرق الغربي الكبير غرباً ومن وادي متليلي شمالاً إلى حدود جبال الهقار جنوباً"[(2)]. ويذكر أوجين دوماس(Eugene Daumas) أيضا بخصوص مراعي أبناء الشعانبة ونفوذهم الضارب في أقاصي الصحراء ما يلي: "أن أبناء الشعانبة كانوا يتحركون في رحلات إلى أبعد الحدود يصلوا فيها إلى أقصى المناطق الجنوبية إلى معاقل التوارق في جبال الهقار." [(3)]

وعادة ما يسبق عملية الخروج للبحث عن المراعي احتفالات يقيمها أبناء القبيلة ليلة الرحيل، بحيث تجتاح البلدة حركة واسعة ونشيطة غير مسبوقة؛ فترى هنا وهناك مجموعات صغيرة من الرجال محلقة حول مواقد النار لإعداد الشاي وتبادل أطراف الحديث عن المراعي التي هم بصدد التوجه إليها، وعادة ما يكون حديثهم عن أسعار رؤوس الأغنام وعن السلع التي هم في أمس الحاجة إليها في ذلك العام، أما الشيوخ الكبار في السن

(1) إبراهيم مياسي: من قضايا تاريخ الجزائر المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،1989،ص 102.

(2) إسماعيل العربي: الصحراء الكبرى وشواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1989،ص 166.

)3(Eugene Daumas: op cit, p 311.

المنارة للاستشارات

فيستغلون الفرصة والسهرة لتزويد الفتيان الصغار بذخيرة تجاربهم وخبرتهم في المجالات التجارة وفي أمور الحياة الأخرى [1].

تبدأ رحلة البحث عادة بعد موسم جني التمور في فصل الخريف، وفي بعض الأحيان تتأخر إلى غاية بداية فصل الشتاء، بحيث تكون رحلة العودة إلى الواحة مع بداية فصل الصيف الذي يُفضّل أبناء القبيلة بقاؤه في الواحة. وبهذا الشكل تكون الرحلة قد استغرقت تقريباً نصف السنة، ثم ما تلبث أن تعاود القافلة الرحيل بعد انتهاء فصل الصيف وبعد جني تمور الموسم، وهكذا دواليك تستمر رحلات الانتجاع الشاقة والمتعبة والمحفوفة بالكثير من المخاطر بالنسبة لأبناء القبيلة من البدو.

ومن أهم إنجازات أبناء الشعانبة من البدو أثناء ترحالهم؛ هو قيامهم بحفر العديد من الآبار ، وذلك بقصد توفير المياه للقوافل المارة، وخاصة في المناطق القاحلة، بحيث كان لهم دوراً كبيراً في بعث الحياة والحركة في تلك المناطق المقفرة والموغلة في الصحراء الكبرى، كما كان لهم الفضل في استحداث وشق الكثير من الطرق والمسالك في داخل المناطق الصحراوية المترامية الأطراف [2].

وهنا يظهر دور الجمل وقطعان الإبل التي كانت تُعد في تلك الفترة من أهم وسائل النقل والتنقل في الصحراء، فالجمل كما هو معروف هو الحيوان الوحيد الذي يمتلك القدرة على مقاومة العطش والمناخ الصحراوي الشديد الحر، هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان امتلاك قطعان الإبل بالنسبة لقبائل الصحراء يمثل أهم مظهر من مظاهر ثراء وقوة القبيلة، فبقدر ما تمتلك القبيلة من رؤوس تكون قوتها ومهابتها [3]، ولهذا نجد أن أبناء الشعانبة كان لهم اهتمام كبير بتربية الإبل وتنميتها، إلا أن هذا الاهتمام بدأ يتراجع ويقل مع تقدم الوقت، وذلك بسبب تخلي الغالبية العظمى من أبناء القبيلة عن حياة التنقل والترحال، بحيث فضل كثير منهم الاستقرار في الواحات والاهتمام في مقابل ذلك بممارسة أنشطة أخرى، كالزراعة والتجارة وأعمال البناء، وخاصة في الفترة التي احتلت فيها فرنسا هذه المناطق، حيث بدأت قواتها فور سيطرتها على هذه المناطق تمارس أبشع

) 1(yves Régnier: op cit,p 51.

(24) Yves Régnier: op cit, p 36.

(25) إبراهيم مياسي: مرجع سابق،ص97.

المنارة للاستشارات

أساليب النهب والعنف والتضييق على معظم قبائل الصحراء، فكان هذا أحد أهم أسباب الاستقرار والاهتمام بالأرض. وعلى ذكر الاستقرار والأرض؛ سنحاول الآن أن نتطرق إلى المجالات الأخرى التي اهتم بها أبناء الشعانبة.

أ)-الزراعة:

لعل من أهم الزراعات التي اهتم بها أبناء الشعانبة، نجد زراعة النخيل التي عرفت تطورا وتوسعا كبيرين في المنطقة، بحيث وصلت أصنافها لنحو ثلاثين صنف، ويُعد التمر الغذاء الأساسي لسكان المنطقة والمصدر الرئيسي لتجارة سكان المنطقة [1].ويعتمد السكان في سقي بساتينهم في الغالب على المياه الجوفية أو على مياه الأمطار أذا كانت السنة ممطرة، ويقوم أبناء الشعانبة بجني محاصيل التمر في شهر أكتوبر ونوفمبر من كل سنة، وإلى جانب زراعة النخيل يهتم سكان المنطقة بزراعة بعض الخضر والفواكه الموسمية؛ كالطماطم والجزر والبصل والرمان والتين والعنب كما يخصّص الفلاح جزء من أرضه لزراعة القمح والشعير[2].

ب)- التجارة:

يبدو أن النشاط التجاري في المنطقة لم يقتصر على نشاط فئة الحضر في الأسواق فقط، وإنما كان كذلك للبدو الرحل دور كبير في تنشيط الحركة التجارية بسبب تنقلاتهم المستمرة بين الحواضر الصحراوية، مثل غدامس وتماسين، وعين ماضي، وتيديكلت، وتوات، وتيميمون وبلاد أولاد سيدي الشيخ[3]، فكانوا أينما نزلوا نشطت التجارة، وكانوا كلما عادوا إلى المدينة يجلبون معهم ما زاد عن حاجاتهم من منتجات حيوانية ونباتية، وكان من أهم هذه المواد السمن والشحم والحليب والعسل أو بعض أعشاب الصحراء، وكانت عمليات التبادل تتم في ساحة السوق السابقة الذكر. وفي هذا الصدد يصف المؤرخ

---

(26) Yves Régnier: op cit, p12.

)2(Edmond couvion: le kharidjisme Monographie du Mzab, imprimeries reum us de la Marocain et du petit Marocain, 1926,p p 242-243.

)3(Le lieutenant-colonel Dumas, *Le* Sahara algérien : études géographiques, statistiques et historiques sur la région au sud des établissements français en Algérie, Langlois et Leclercq, Paris ,1845,P313

المنارة للاستشارات

إسماعيل العربي في كتابه (الصحراء الكبرى وشواطئها) نشاط أبناء الشعانبة التجاري فيقول: "يُسيّطر أبناء الشعانبة على تجارة القوافل الصحراوية التي تنشط في المناطق الجنوبية الواسعة، بحيث تمتد مناطق نفوذهم من حدود المناطق الشمالية التلية بالجزائر إلى حدود مدينة تنبكتو بمالي ونهر النيجر جنوباً وكانوا دوماً في تنافس كبير مع أبناء التوارق "[1].

وكانت القوافل التجارية التابعة لأبناء الشعانبة تقوم بتموين معظم القصور الواقعة في الجنوب الجزائري، ومن أهم المواد التي كان يتاجر فيها أبناء الشعانبة؛ نجد مادة السكر والشاي الذي كانوا يجلبونه معهم من مدينة قابس، ونجد كذلك على سبيل المثال لا الحصر مواد الملح والحناء والكحل والبارود، والشب، والشاي، والرصاص، والجلود، وريش النعام، وزهم النعام والشمع، و الذهب الخام والمشكّل [2]، بالإضافة إلى الجمال ومشتقات الحليب والصوف والمنسوجات وغيرها[3].وكانوا يأتون بمثل هذه المواد ويعرضونها في أسواق المنطقة، وخاصة في سوق مدينة غرداية العامر، ولكن هذا النشاط التجاري عرف تراجعاً كبيراً؛ بسبب دخول قوات الاحتلال الفرنسي إلى المنطقة، التي ستحول التجارة من تجارة خارجية عابرة للصحراء إلى تجارة داخلية ضعيفة وبينية تتم بين أسواق المنطقة فقط [4].

ج)- الصنائع الحرفية:

من أهم الصنائع الحرفية التي انتشرت في بلدة متليلي، نجد صناعة أو حرفة النسيج، ويعود هذا الازدهار في الأصل إلى وفرة المواد الأولية المتمثلة في وبر الإبل وأصواف الغنم والماعز، ولقد برعت المرأة في المنطقة في هذا المجال، فكانت تقوم بعملية النسيج من البداية إلى غاية النهاية، حيث تبدأ بمعالجة المادة الأولية بعد زجها وحفظها في رزم وأكياس لمدة أيام قد تصل إلى خمسة أيام وذلك حتى يسهل نسلها ونفشها ثم يتم بعد ذلك غسيلها

(1) إسماعيل العربي : مرجع سابق ،ص 105.

)2(Yves Regnier: op cit ,p 121.

)3(Le lieutenant-colonel Dumas, op.cit. ,P312.

)4(Charles Kleinknecht: Administrer civil an Sahara ,Edition Harmattan Le coli ,paris , 2000,p 59.

المنارة للاستشارات

غسيلاً جيد ثم توضع لتجف [1]، ثم يعاد غسل الصوف مرة ثانية وثالثة حتى تتم تنقيته من كل الشوائب، بعد هذه المرحلة يتم صبغ الصوف باللون المناسب، وذلك بوضع الصوف أو الوبر في أناء به ماء مخلوط بأوراق الحنة أو الرمان، ثم يوضع الإناء فوق موقد النار بعدها يُنزّع ويُفّرش في مكان نظيف ويبقى حتى يجف بالكامل، وبعد هذه المرحلة تبدأ عملية فرك الصوف أو كما يسمونها محليا بعملية البشم؛ أي أن الصوف يخضع لعميلة حل وتفكيك خيوطه الدقيقة وتتم هذه العملية بواسطة اليدين، بحيث يوضع الصوف بين الأصبعين السبابة والإبهام ويتم فركه وبعد العملية مباشرة يتم غزله باستعمال عود مصنوع من الخشب يسمى المغزل، وعملية الغزل تتم باستعمال اليدين والركبة، بحيث يُوضع المغزل على الركبة وتعلق كومة الصوف في أعلاه ثم يُمسك المغزل باليد اليسرى ثم يتم تحريك المغزل بشكل دائري بواسطة اليد اليمنى، وتستمر العملية إلى أن يبدأ خيط الصوف الدقيق يتشكل ويلتف حول نفسه حتى يأخذ شكل كرة في النهاية (كبة)، وبالانتهاء من هذه العملية اليدوية الدقيقة يكون الصوف جاهز للنسيج، ومن أبرز المنتجات النسيجية عند سكان المنطقة نجد الزربية بكل أنواعها، ونجد البرنوس والجلابة، والأفرشة (الحنابل) .

وتبدأ عملية النسيج بحفر حفرتين متقابلتين بينهما مسافة معيّنة، بحيث يتم غرس وتدين في الحفرتين ويثبت فوق هذين الوتدين خشبة مستقيمة من الجهة العلوية، بحيث تحمل هذه الخشبة خيوط النسيج التي يتم إرسالها نحو الأسفل بشكل مستقيم وعلى وجهين؛ ليتم لفها حول خشبة تكون مثبتة في الجهة السفلية، يشد الخيوط عمود أفقي يسمى قصبة بين الخشبتين بشكل متعاكس ومستقيم، وبهذه العملية اليدوية الدقيقة والمعقدة تبدأ عملية النسيج وذلك باستعمال أمشاط حديدية تسمى الخُلالة تدق بها خيوط الصوف وتدوم عملية النسيج لعدّة أيام تصل أحيانا إلى حوالي أسبوعين [2].

ومن أهم الصناعات النسيجية التي اشتهرت في المدينة القصر ، نجد صناعة الخيام التي يُستعمل في نسجها خليط متكون من الشعر والصوف والوبر وللخيمة مكانة مميزة

(32) Yves Régnier: op cit ,p 55.

(33) استقيت هذه المعلومات من إحدى المتخصّصات في صناعة النسيج التقليدي في المنطقة بتاريخ 10-11-2016.

المنارة للاستشارات

عند أبناء الشعانبة، فلقد كانت الخيمة ولا تزال ضرورية لحياة البدو الرحل [1]، حيث تبدأ صناعتها بمزج خيوط من الصوف بخيوط من الشعر كما أشرنا سابقاً فيتشكل لدينا لونين متمازجين. وعادة ما يكون اللون الناتج هو خليط بين الأبيض والأسود أو الأبيض والأحمر، وتتم عملية النسيج تقريبا بنفس الطريقة التي ذكرناها سابقا [2].

وتبدأ العملية بوضع حجرين متوسطين الحجم ومتقابلان تفصل بينهما مسافة معينة تجلس عند كل حجر امرأة ويبدأني في رمي كرة الخيط بينهما وتستمر العملية حتى تتشكل خطوط مستقيمة من الخيوط المتوازية بعدها يتم إدخال الصوف والشعر الممزوج بين الخطوط المستقيمة المتوازية في آلة النسيج ثم يتم دق هذه الخيوط بأداة تسمى المدرة، وهي مصنوعة من عود خشبي سميك وأسلاك على شكل مشط تستمر العملية بهذا الشكل إلى أن يتم إنتاج قطعة أو جزء من الخيمة وبنفس الطريقة يتم صنع القطع الأخرى وتتناسب أعداد القطع بكبر أو صغر الخيمة فالخيمة الكبيرة تحتاج عادة من خمسة إلى ستة قطع للسقف لوحده وقطعتين على كل جانب، بحيث تُخاط تلك القطع مع بعضها البعض لتشكل في النهاية هيكل الخيمة [3].

4- صناعة الأطباق والحصير بسعف النخيل والحلفَاءَ:

ومن الصنائع الحرفية التي انتشرت في المنطقة، نجد صناعة الأطباق والقفاف والحصير والأقداح والحبال، وذلك باستعمال سعف النخيل المتوفر بكثرة في المنطقة أو بنبات الحلفَاءَ الذي كان يأتي به البدو الرحل أثناء عودتهم من المناطق التلية. يبدأ الحرفي صناعة الأطباق بتشكيل دائرة صغيرة من نبات الحلفاء، وبعد أن ينتهي من الدائرة الأولى أو اللفة الأولى، يبدأ في تشكيل دائرة ثانية أكبر من الدائرة الأولى، وهكذا دواليك يستمر في تشكيل الدوائر إلى أن يحصل على عدة دوائر متفاوتة الحجم، وبعد هذه العملية يقوم الحرفي بربط تلك الدوائر مع بعضها البعض بواسطة خيوط الحلفاء؛ فيتشكل الطبق

) 1(D'armagnac: op cit, p 120.

)2(Yves Régnier: op cit, p 64.

(36) استقيت هذه المعلومات من مطوية تعود لسنة 1985، تحصّلت عليها من مقر ديوان الوطني للسياحة في مدينة متليلي(تحت يد الباحث نسخة منها) .

المنارة للاستشارات

الذي يُستخدم عادة في تحضير الكسكسى أوفي تحضير العجين[1]. وبنفس الطريقة تقريباً يتم صناعة الكسكاس الذي يستخدم في طهي الطعام، إلا أنه يختلف عن الطبق في الشكل؛ فالكسكاس عميق وضيق في الأسفل وواسع في الأعلى شكله قريب من شكل القمع.

وبفعل انتشار وازدهار هذه الحرفة في المنطقة أصبحت عدّة أسر تعتمد في عيشها على هذه الحرفة، وخاصة في الأزمنة السابقة، ولكن اليوم تكاد هذه الحرفة تفقد دورها ومكانتها بفعل تطور وسائل العيش ولو لا وجود بعض الأشخاص المهتمين بها إلى اليوم لكن مصيرها الاندثار.

5- حرفة البنـاء:

استعمل سكان المنطقة في بناء منازلهم أنواع متعددة من الحجارة؛ كالحجارة الغرانيتية والحجارة الكلسية المتواجدة بكثرة في المنطقة، وقد أشار لهذه النقطة الباحث هنري دوفرورني (Henry Duveyrier) الذي قال: " بأن منطقة ميزاب وبلاد الشعانبة تقع على هضبة كلسية مكونة من طبقات متراصة من الحجارة الرمادية اللون وذات العروق البلورية الصلبة "[2].

وفي الغالب فإن معظم جدران المنازل في المنطقة مبنية من هذه الحجارة المتوفرة بكثرة، أما سقوف البيوت فقد كان يستعمل في تثبيتها وبنائها جذوع النخل[3] وخاصة جذع نخلة "تيمجوهرت" الذي يتميز بقدرته على مقاومة تقلبات المناخ، كما أنه لا يتآكل بسرعة، ويتم اختيار الجذوع الضخمة والعريضة التي يتم تقطيعها إلى عدة قطع على شكل طولي حسب حجم الجذع بعدها يتم تهذيب وصقل هذه القطع باستعمال الفأس ثم توضع تحت أشعة الشمس لتجف قبل استعمالها بعد ذلك يتم وضعها بشكل متوازي على الجدران ثم

)1(Yves Régnier: op cit , p 54.

) 2(Henry Duveyrier : op cit, p 05.

(39) أمينة بامون: " إعادة إدماج القصور الصحراوية في الواقع المادي قصر عسلة أنموذجا " ، في مجلة أفاق للعلوم ،جامعة زيان عاشور الجلفة، مجلد 2، العدد06،2017 من الموقع: http://afak-revues.net/index.php/afak/article/view/533 الزيارة يوم 2020/10/25 على الساعة 18h00، ص458.

المنارة للاستشارات

يتم تغطيتها بالجريد وبمادة الليف الذي يتميز بقدرته الكبيرة على امتصاص مياه الأمطار[1] ،كما يعتبر الليف عازل جيد للحرارة وخاصة في فصل الصيف الذي ترتفع فيه درجات الحرارة بشكل كبير.

بعد هذه العملية يتم وضع طبقة من الطين فوق غطاء الجريد والليف، ثم يوضع فوق طبقة الطين بعد أن تجف طبقة رقيقة من الجير الذي يتم صناعته محليا من الحجارة الكلسية [2] التي يتم استخراجها من الهضاب الصخرية المحيطة بالمنطقة، ويتم تحضير مادة الجير بتكسير هذا النوع من الحجارة إلى قطع صغيرة، ثم يتم صهرها في أفران تشبه الغرف مبنية بالحجارة والطين، بحيث تدوم عملية تحضير الجير عّدة أيام.

أما بخصوص أرضية المنازل؛ فهي عبارة عن طبقة من الطين، يتم تسويتها باستعمال آلة خشبية يدوية، وبعض المنازل يُفّضل أهلها ترك أرضية منازلهم مغطاة بطبقة من الرمل، أما بالنسبة إلى اللون الخارجي للمنازل فإن غالبية السكان في المدينة والمنطقة كانوا يفضلون اللون الترابي، وعادة ما تكون أبواب منازلهم صغيرة ومنخفضة، وذلك من أجل التقليل من مرور أشعة الشمس الحارة في فصل الصيف [3].

(40) استقيت هذه معلومات من بعض الزملاء الذين كانت لهم لقاءات وجلسات مع بعض كبار السن من أبناء المدينة من الذين كانوا يشتغلون في مجال البناء ؛كالمدعو قدور الغربي ، الذي تمت مقابلته بحي السوارق في مدينة متليلي يوم 25 ماي 2005.

(41) المصدر نفسه.

)3(Edmond couvion : op cit, p 244.

المنارة للاستشارات

- **خاتمة:**

وفي ختام هذا البحث، خلصت إلى بعض الاستنتاجات، يُمكنني أن أوجزها في النقاط الآتيـة:

- تقع مدينة متليلي في نطاق منطقة الشبكة، وهي منطقة تتوسط شمال الصحراء، وتتميز من حيث المناخ والتضاريس بكثرة الهضاب الصخرية وبارتفاع درجات الحرارة صيفا وبندرة الغطاء النباتي وقلة تساقط الأمطار.

- يشغل القصر العتيق لمدينة متليلي الشعانبة موقعا استراتيجيا هاما يقع وسط المدينة، كما يُعدُّ تحفة حضارية وتاريخية بالمنطقة، تبرز عبقرية السكان المنطقة في البناء وفق العلاقات الاجتماعية والظروف البيئية مكونين نمط معماري خاص بهم.(صور القصر في الملحق)

- ازدهرت في المنطقة عدّة حرف ونشاطات، من أهمها حرفة الرعي ومهنة الزراعة، وخاصة زراعة النخيل كما زاول أبناء الشعانبة مهنة التجارة التي اشتهروا بها بين قبائل الصحراء.

- اشتهرت مدينة متليلي ببعض الحرف والصنائع التقليدية ، ومن أهمّها حرفة النسيج، وحرفة صناعة الأطباق والحصير بسعف النخيل والحلفاء، كما تميزت المدينة بنمط معماري مميز وكان بناء القصر والمدينة بالكامل بمواد وخامات محلية الصنع.

- لايزال موضوع دراسة مدينة متليلي الشعانبة خصباً، خاصة وأن للمنطقة تاريخ عريق من شأنه أن يفسح المجال للدراسات التاريخية والأثرية والأنثروبولوجية، وبالأخص ما تعلّق بالأجناس التي استوطنت بها ولاتزال وكذا الحياة الاقتصادية والاجتماعية والخيرات التي تزخر بها.

هذه بعض الاستنتاجات التي تمكّن الباحث من الوصول إليها، ولاشك أن موضوع هذه الورقة البحثية بحاجة إلى مزيد من البحث والتعمّق للوصول إلى نتائج أدق وأعمق في المستقبل.

المنارة للاستشارات

- الملاحق:

ملحق رقم01: صورة لمئذنة مسجد قصر متليلي العتيق في مطلع القرن20م.

ملحق رقم02: صورة حديثة للواجهة الخارجية لقصر متليلي القديم

المنارة للاستشارات

ملحق رقم03: صورة حديثة لمدينة متليلي الشعانبة

.

المنارة للاستشارات

- قائمة المصادر:

1- ابن خلدون عبد الرحمن: المقدمة، تهذيب ضياء الدين رجب،ط1،دار الفتح للطباعة والنشر ،الشارقة،الإمارات العربية،1995.

2- ابن خلدون عبد الرحمن: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، د-ر-ط، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت لبنان،ج6، 2010.

-قائمة المراجع:

1- عزوق عبد الكريم وعلي حملاوي: تحريات بمنطقة متليلي، في مجلة الدراسات الأثرية ،مج3، العدد01، معهد الآثار، جامعة الجزائر، نوفمبر 1998.

2- طلاي إبراهيم محمد: ميزاب بلد كفاح ،دراسة تاريخية واجتماعية ،د-ر-ط،دار البعث، قسنطينة ، الجزائر، 1970.

3- العربي إسماعيل : الصحراء الكبرى وشواطئها، د-ر-ط،المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر،1989.

4-عميراوي أحميدة ومن معه: السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية 1844-1916 ،د-ر-ط، دار الهدى للطباعة والنشر، الجزائر،2009.

5-مياسي إبراهيم: من قضايا تاريخ الجزائر المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،1989.

6-بن ولهة عبد الحميد:أبناء الشعانبة ومراحل التطور الحضاري لبلاد الشبكة سكانيا وعقائديا وعمرانيا، ط1،دار صبحي،للطباعة ونشر،متليلي، الجزائر،2014.

7-بامون أمينة: إعادة إدماج القصور الصحراوية في الواقع المادي قصر عسلة أنموذجا ، في مجلة أفاق للعلوم مجلد 2، العدد 1،2017 من الموقع: http://afak-revues.net/index.php/afak/article/view/533 الزيارة يوم 2020/10/25 على الساعة 18h00.

المنارة للاستشارات

-المراجع الأجنبية:

1- Couvion Edmond: Le kharidjisme Monographie du Mzab. Imprimeries Réunis de la vigie marocain et du petit Marocain 1926.

2- D'armagnac lieutenant:Le Mzabite les pays chaamba . édition Baconien Alger. 1934.

3- Dumas Eugene Lieutenant: Le Sahara Algérien. Études Géographiques et statistiques et historiques sur la région au sud des établissements français en Algérie. Paris. 1845.

4- Duveyrier Henry: Les Touaregs du Nord ,Paris,1864

5- - Kleinknecht Charles: Administrateur civil au Sahara un vie au service de l Algérie et des territoires du sud 1942-1962.Lharmattan 5-7 rue de l'école polytechnique .paris. France .sans date.

6- Passager Paul François Michel :Metlili des chaambas centre de Documentation saharienne .Paris .sans date.

7- Régnier Yves: Les chaamba sous le Régime français leur transformationnels éditions Domat Montchrestien. paris .1938

المنارة للاستشارات